المحاضرة الثانية: الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي للجزائر والمقاومة المحلية

شكّل المغرب القديم، الذي تمثل الجزائر الحالية الجزء الأكبر منه، أحد أهم الأقاليم الاستراتيجية في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ العصور القديمة، وذلك بفضل موقعه الجغرافي الذي يربط بين شرق المتوسط وغربه، وبين الساحل المتوسطي والعمق الصحراوي. وقد جعل هذا الموقع المنطقة محط أطماع القوى المتوسطية المتعاقبة، التي سعت إلى السيطرة على طرق التجارة، واستغلال الأراضي الزراعية الخصبة، وتأمين حدودها الجنوبية. ورغم تعاقب الاحتلالات الأجنبية، بدءًا بالرومان ثم الوندال فالبيزنطيين، فإن هذه السيطرة لم تكن مطلقة ولا مستقرة في جميع أنحاء البلاد، إذ احتفظت القبائل والممالك الأمازيغية بدرجات متفاوتة من الاستقلال، خاصة في المناطق الجبلية والداخلية، كما اندلعت حركات مقاومة متواصلة اتخذت أشكالًا عسكرية وسياسية ودينية واجتماعية، وأسهمت في الحد من نفوذ القوى المحتلة وإعاقة مشروعها التوسعي.

1.الاحتلال الروماني للجزائر (146 ق.م–429م)

1.1.من سقوط قرطاج إلى بداية التوسع الروماني

يمثل سقوط قرطاج سنة 146 ق.م نهاية الحرب البونية الثالثة وبداية مرحلة جديدة في تاريخ شمال إفريقيا، غير أن هذا التاريخ لا يعني خضوع الجزائر مباشرة للحكم الروماني، إذ اقتصرت السيطرة الرومانية في البداية على أراضي قرطاج وإقليم إفريقيا البروقنصلية، بينما بقيت الممالك النوميدية والمورية مستقلة سياسيًا، وإن أصبحت خاضعة لضغوط روما المتزايدة. وقد استمرت المملكة النوميدية تحت حكم "مسينيسا" (148–118 ق.م)، الذي حافظ على تحالفه مع روما، غير أن وفاته سنة 118 ق.م فتحت باب الصراع على العرش بين أبنائه الشرعيين "هميصال" وآذربعل، وابن أخيه "يوغرطة"، وهو ما منح الجمهورية الرومانية فرصة للتدخل المباشر في شؤون المملكة.

2.1. حرب يوغرطة (111–105 ق.م)

تعد حرب "يوغرطة" من أبرز حركات المقاومة في تاريخ الجزائر القديم، إذ مثلت محاولة جادة للحفاظ على استقلال المملكة النوميدية في مواجهة التوسع الروماني.

نشأ "يوغرطة" داخل البلاط النوميدي واكتسب خبرة عسكرية أثناء مشاركته إلى جانب الجيش الروماني في حصار نومانتيا بإسبانيا، الأمر الذي مكّنه من التعرف على أساليب القتال الرومانية، كما كشف له حجم الفساد داخل الطبقة السياسية في روما. بعد وفاة "مصيبسا"، دبّ الخلاف بين الورثة، فتمكن يوغرطة من التخلص من "همبصال"، ثم دخل في صراع مع "آذربعل"، الأمر الذي دفع روما إلى التدخل وإعلان الحرب سنة 111 ق.م. واستمرت الحرب ست سنوات، وشهدت مراحل متعددة تميزت بقدرة يوغرطة على استغلال طبيعة البلاد الجبلية والصحراوية، واعتماد أسلوب الكر والفر، ومهاجمة خطوط الإمداد الرومانية، وهو ما يعد من أوائل أشكال حرب العصابات في تاريخ شمال إفريقيا.

ومن أبرز محطات الحرب معركة سوتول (*Suthul*) سنة 109 ق.م، التي تعرض فيها الجيش الروماني لهزيمة مهينة، واضطر جنوده إلى المرور تحت النير، في مشهد عكس حجم الأزمة التي واجهتها الجمهورية الرومانية في إفريقيا. ثم قاد القنصل "كوينتوس كايسيليوس متيلوس" حملة جديدة ضد "يوغرطة"، وخاض معه معركة نهر المثول (*Muthul*) ، دون أن يتمكن من القضاء على المقاومة نهائيًا.

وفي سنة 107 ق.م تولى "غايوس ماريوس" قيادة الحرب، بمساعدة ضابطه "لوسيوس كورنيليوس سولا"، ولما عجزت القوات الرومانية عن حسم الصراع عسكريًا، لجأت إلى الوسائل الدبلوماسية، فنجحت في استمالة "بوكوس الأول"، ملك موريطانيا وصهر "يوغرطة"، الذي سلّم هذا الأخير إلى "سولا" سنة 105 ق.م. ونُقل "يوغرطة" إلى روما، حيث شارك في موكب النصر، ثم أُعدم في سجن التوليانوم بعد أشهر، لتنتهي بذلك إحدى أعنف الحروب التي خاضتها روما في شمال إفريقيا. ورغم هزيمة "يوغرطة"، فقد أصبحت مقاومته رمزًا للدفاع عن استقلال الممالك النوميدية، وأبرزت محدودية القوة العسكرية الرومانية عندما تواجه مقاومة محلية منظمة.

3.1. ضم نوميديا والتوسع نحو موريطانيا

لم يؤدي القضاء على "يوغرطة" إلى إخضاع كامل الجزائر مباشرة، إذ استمرت الممالك النوميدية والمورية قائمة خلال العقود اللاحقة، وإن كانت تحت نفوذ روماني متزايد. وبعد اندلاع الحرب الأهلية الرومانية بين "يوليوس قيصر" و"بومبي"، انحاز الملك "يوبا الأول" إلى معسكر "بومبي" دفاعًا عن استقلال نوميديا. غير أن هزيمته في معركة ثابسوس سنة 46 ق.م أدت إلى انهيار المملكة، فألحق "يوليوس قيصر" الجزء الشرقي من نوميديا بولاية إفريقيا الجديدة (*Africa Nova*) . بينما بقيت موريطانيا مملكة حليفة تحت حكم يوبا الثاني ثم ابنه بطليموس.

4.1. اغتيال بطليموس وثورة أيديمون (40–42م)

ظل ملوك موريطانيا يتمتعون باستقلال نسبي حتى عهد الإمبراطور "كاليغولا"، الذي استدعى الملك "بطليموس" إلى روما وأمر باغتياله سنة 40م، في حادثة شكلت نقطة تحول في تاريخ المنطقة. حيث أثار اغتيال بطليموس غضب القبائل المورية، فانطلقت ثورة واسعة بقيادة "أيديمون" أحد رجال البلاط الملكي، الذي سعى إلى الحفاظ على استقلال المملكة. واستمرت الثورة نحو عامين، وشاركت فيها قبائل عديدة، الأمر الذي اضطر الإمبراطور "كلوديوس" إلى إرسال قوات كبيرة لإخمادها. وبعد القضاء على الثورة سنة 42م أنهت روما استقلال موريطانيا نهائيًا، وقسمتها إلى ولايتين:

- موريطانيا القيصرية وعاصمتها قيصرية (شرشال).
- موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة.

ومنذ هذا التاريخ أصبحت أغلب مناطق شمال الجزائر جزءًا من التنظيم الإداري الروماني، مع استمرار مناطق عديدة في الداخل والأوراس خارج السيطرة المباشرة أو خاضعة لنفوذ روماني متفاوت، وهو ما يفسر استمرار حركات المقاومة خلال القرون اللاحقة.

5.1. ثورة تكفاريناس (17–24م)

تُعد ثورة "تكفاريناس" من أطول وأخطر الثورات التي واجهتها روما في شمال إفريقيا خلال القرن الأول الميلادي، كان ن تكفاريناس جنديًا خدم في القوات المساعدة التابعة للجيش الروماني قبل أن يفر منها، الأمر الذي أكسبه معرفة جيدة بالتنظيم العسكري الروماني وأساليب القتال. استغل حالة التذمر بين القبائل النوميدية والجيتولية، فكوّن تحالفًا ضم قبائل عديدة، كما تحالف مع الزعيم الموري "مازيبا" الذي قاد مجموعات من فرسان المور في غرب البلاد. واعتمد الثوار على حرب العصابات الكر والفر، فهاجموا القوافل، وخطوط الإمداد، والمزارع الرومانية، وتجنبوا المواجهات المباشرة مع الفيالق النظامية.

حاول عدد من القادة الرومان القضاء على الثورة، منهم "ماركوس فوريوس كاميلوس" ثم "لوسيوس أبرونيوس"، لكنهم لم يحققوا نجاحًا حاسمًا. وعندما تولى "كوينتوس يونيوس بلايسوس" القيادة سنة 22م، تمكن من تضييق الخناق على الثوار، غير أن الثورة استمرت حتى عهد الحاكم "بوبليوس كورنيليوس دولابيلا"، الذي استطاع سنة 24م محاصرة تكفاريناس في أحد معاقله، حيث قُتل أثناء القتال، لتنتهي الثورة بعد سبع سنوات من المقاومة.

ورغم هزيمته؛ كشفت ثورة تكفاريناس عن محدودية السيطرة الرومانية على المناطق الداخلية، وأثبتت أن إخضاع القبائل الأمازيغية لم يكن أمرًا يسيرًا، بل تطلب وجودًا عسكريًا دائمًا. فاعتمدت روما على شبكة دفاعية عرفت باسم الليمس (*Limes*) ، وهي منظومة من الحصون والأبراج والخنادق والطرق العسكرية، هدفت إلى حماية المدن الرومانية، وتأمين المناطق الزراعية، ومراقبة تحركات القبائل. وقد انتشر الوجود العسكري خاصة في: تبسة (*Theveste*) ، لامباز تازولت(*Lambaesis*) ، مقر الفيلق الثالث الأغسطي، أوزيا (*Auzia*) ، سطيف(*Sitifis*) ،تيمقاد(*Thamugadi*)

ولم يكن الليمس يمثل حدودًا سياسية ثابتة، بل كان نظامًا دفاعيًا متحركًا يتكيف مع تطور الأوضاع الأمنية، ولذلك بقيت مناطق الأوراس والأطلس الصحراوي والجنوب خارج السيطرة الرومانية الكاملة في فترات كثيرة.

6.1. ثورة فيرموس (372–375م)

شهد القرن الرابع الميلادي اضطرابات واسعة نتيجة تراجع قوة الإمبراطورية الرومانية وتفاقم الأزمات الاقتصادية والإدارية. وفي هذا السياق قاد الأمير الأمازيغي "فيرموس" ثورة كبيرة سنة 372م ضد السلطة الرومانية. وتعود أسباب الثورة إلى النزاع على زعامة أسرته، إضافة إلى استياء القبائل من تجاوزات المسؤولين الرومان وخاصة الوالي "رومانوس" الذي عرف بالفساد وسوء الإدارة.

تمكن "فيرموس" من استقطاب عدد من القبائل الأمازيغية، وسيطر على مدن ومناطق واسعة في موريطانيا القيصرية، مستفيدًا من معرفته بالتضاريس الجبلية. غير أن الإمبراطور "فالنتينيان الأول" أوفد القائد "ثيودوسيوس الأكبر" الذي قاد حملة عسكرية طويلة انتهت سنة 375م بانهيار الثورة، ويُرجح أن فيرموس أنهى حياته قبل وقوعه في الأسر.

7.1. ثورة جيلدون (397–398م)

بعد نحو عقدين من ثورة فيرموس، قاد شقيقه جيلدون" حركة تمرد جديدة. وكان جيلدون يشغل منصبًا رسميًا في الإدارة الرومانية، لكنه دخل في صراع مع السلطة المركزية في أواخر القرن الرابع الميلادي. وفي سنة 397م أعلن تمرده، وسيطر على إمدادات القمح القادمة من إفريقيا، وهي الإمدادات التي كانت تمثل عنصرًا حيويًا لمدينة روما. وقد أدى ذلك إلى أزمة سياسية دفعت الإمبراطور "هونوريوس " إلى إرسال حملة بقيادة "ماسكيزيل"، شقيق جيلدون، الذي انقلب عليه. وانتهت الثورة سنة 398م بهزيمة "جيلدون" ووفاته.

8.1. الحركة الدوناتية والدوّارون (311–411م)

تمثل الحركة الدوناتية إحدى أبرز الظواهر الدينية والاجتماعية في تاريخ إفريقيا الرومانية. وقد نشأت بعد الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون في عهد الإمبراطور **دقلديانوس** (303–305م)، عندما انقسمت الكنيسة الإفريقية حول شرعية بعض الأساقفة الذين اتُّهموا بتسليم الكتب المقدسة إلى السلطات الرومانية. وفي سنة 311م انتُخب "دوناتوس الكبير" زعيمًا للحركة، التي رفضت الاعتراف بشرعية الأساقفة المتعاونين مع السلطة، ودعت إلى كنيسة مستقلة تقوم على نقاء رجال الدين. انتشرت الدوناتية بقوة في نوميديا ثم في أجزاء واسعة من موريطانيا، ولاقت تأييدًا بين سكان الأرياف والقبائل الأمازيغية، في حين تمركز نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الرسمية في المدن الكبرى.

وظهرت إلى جانب الدوناتية جماعات عُرفت في المصادر اللاتينية باسم "Circumcelliones" ، ويُترجم اسمها أحيانًا إلى "الدوّارين". وتألفت هذه الجماعات من فلاحين وعمال زراعيين وفقراء الريف، واتخذت من التجوال بين الضياع والأرياف وسيلة لنشر أفكارها ومساندة الدوناتيين. حيث دخل الدوّارون في مواجهات متكررة مع ملاك الأراضي والسلطات الرومانية، وهاجموا بعض الممتلكات الكبيرة، الأمر الذي دفع الرومان إلى استخدام القوة لقمعهم. وفي مؤتمر قرطاج سنة 411م أيدت السلطة الإمبراطورية الكنيسة الكاثوليكية، وأُعلنت الدوناتية حركة غير شرعية، وتعرض أتباعها للمصادرة والنفي وإغلاق الكنائس، ومع ذلك استمرت الحركة في أجزاء من إفريقيا حتى القرن السادس الميلادي، قبل أن تتراجع تدريجيًا.

وهكذا، اتخذت المقاومة في العصر الروماني أشكالًا متعددة؛ فمنها المقاومة العسكرية التي مثلها "يوغرطة" و"تكفاريناس" و"فيرموس" و"جيلدون"، ومنها المقاومة الدينية والاجتماعية التي جسدتها الحركة الدوناتية والدوّارون، وهو ما يعكس استمرار رفض قطاعات واسعة من سكان البلاد للسيطرة الرومانية حتى سقوطها سنة 429م.

2. الاحتلال الوندالي والمقاومة المحلية (429–534م)

أدى ضعف الإمبراطورية الرومانية الغربية خلال القرن الخامس الميلادي، وتزايد الصراعات الداخلية، إلى فتح المجال أمام الشعوب الجرمانية للتوسع داخل أراضيها. ومن بين هذه الشعوب برز

الوندال بقيادة ملكهم "جينسريق" ، الذي عبر مضيق جبل طارق في ربيع سنة 429م متجهًا نحو إفريقية بما يقارب ثمانين ألف نسمة.

استغل الوندال حالة الانقسام السياسي التي كانت تعيشها الإمبراطورية، وتمكنوا من التقدم عبر موريطانيا ونوميديا حتى فرضوا حصارًا على مدينة هيبون (عنابة)، التي استمر حصارها أربعة عشر شهرًا، وتوفي اثناءه القديس "أوغسطين" في 28أوت 430م .وفي 11فيفري 435م أبرمت الإمبراطورية الرومانية الغربية معاهدة مع الوندال اعترفت لهم بموجبها بالسيطرة على أجزاء من نوميديا وموريطانيا السطائفية مقابل الاعتراف الاسمي بسيادة الإمبراطور.

غير أن "جينسريق" لم يلتزم بهذه المعاهدة، إذ باغت مدينة قرطاج واستولى عليها في 19أكتوبر 439م، لتصبح عاصمة المملكة الوندالية. ثم اعترفت معاهدة 442م بسيادته على إفريقية البروقنصلية والمزاق وطرابلس وأجزاء من نوميديا، وهو ما جعل المملكة الوندالية القوة البحرية الأولى في غرب البحر المتوسط خلال النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي.

سياسيًا؛ احتفظ الوندال بكثير من الهياكل الإدارية الرومانية، غير أنهم ركزوا السلطة في يد الملك والنخبة الوندالية، ومنحوا كبار القادة أراضي زراعية واسعة انتزعت من ملاك الأراضي الرومان وبعض أملاك الكنيسة. أما دينيًا، فقد اعتنق الوندال المذهب الأريوسي، في حين كان أغلب سكان البلاد من الكاثوليك، الأمر الذي أدى إلى توتر ديني متكرر، بلغ ذروته في عهد الملك هونريك (477–484م) الذي اتخذ إجراءات ضد عدد من الأساقفة الكاثوليك، ولا سيما بعد مؤتمر قرطاج سنة 484م. ورغم نجاح الوندال في السيطرة على المدن الساحلية، فإن نفوذهم ظل محدودًا في كثير من مناطق الداخل، حيث استعادت القبائل الأمازيغية استقلالها، وظهرت ممالك محلية قوية.

لم تتمكن المملكة الوندالية من فرض سيطرة فعلية على جبال الأوراس والموريطانيات الداخلية، فاستفادت القبائل الأمازيغية من تراجع النفوذ الروماني لتأسيس كيانات سياسية مستقلة. ومن أبرز هذه الكيانات مملكة ماستياس (*Masties*) في الأوراس.

3. الاحتلال البيزنطي والثورات الأمازيغية (534–647م)

في إطار سياسة الإمبراطور "جستنيان الأول" (527–565م) الرامية إلى استعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية، أُرسلت حملة عسكرية بقيادة القائد "بليزاريوس" **سنة** 533م لإسقاط المملكة الوندالية. نزل الجيش البيزنطي في "كابوت فادا" (*Caput Vada*) ، ثم ألحق هزيمة بالوندال في معركة "أد ديسيموم" (*Ad Decimum*) في 13سبتمبر 533م، وأعقبها انتصار ثانٍ في معركة "تريكاماروم" (*Tricamarum*) في 15ديسمبر 533م .وبعد استسلام الملك "جليمر" سنة 534م انتهى الحكم الوندالي، وأصبحت إفريقية ولاية بيزنطية من جديد.

أعاد البيزنطيون تنظيم الإدارة، وأقاموا حاميات عسكرية في المدن الكبرى مثل قسنطينة، وسطيف، وتبسة، وتيمقاد، وسعوا إلى إعادة فرض الضرائب وإحياء الجهاز الإداري الروماني. إلا أن

نفوذهم الفعلي ظل مقتصرًا على المدن والمناطق الساحلية، في حين بقيت مناطق الأوراس والجنوب وأجزاء من الموريطانيات تحت سلطة الزعامات الأمازيغية.

واجه البيزنطيون منذ السنوات الأولى مقاومة شديدة من القبائل الأمازيغية، التي رأت في عودتهم استمرارًا للسيطرة الأجنبية. كان من أبرز هؤلاء الزعيم "يوداس"(laudas) ، الذي سيطر على أجزاء واسعة من جبال الأوراس، وشن هجمات متكررة على المواقع البيزنطية. واضطر القائد "سولومون" إلى تنظيم حملات متتالية ضده، فتمكن مؤقتًا من إضعاف نفوذه دون القضاء نهائيًا على المقاومة.

وخلال العقود التالية استمرت المواجهات بين الزعامات الأمازيغية والإدارة البيزنطية، وتكررت الانتفاضات بسبب الضرائب الباهظة، والصراع على النفوذ، وعجز السلطة عن بسط سيطرتها خارج المدن الرئيسية.

وفي سنة 646م أعلن القائد البيزنطي جرجير (*Gregorius*) استقلاله عن القسطنطينية، واتخذ من سبيطلة (*Sufetula*) عاصمة له، مستفيدًا من ضعف السلطة المركزية. غير أن هذا الانفصال لم يدم طويلًا، إذ انتهى بهزيمته في معركة سبيطلة سنة 647م أمام جيش "عبد الله بن سعد بن أبي السرح"، لتدخل المنطقة مرحلة جديدة انتهت تدريجيًا بزوال الحكم البيزنطي من بلاد المغرب.

وبذلك اتسم العصر البيزنطي بقصر مدته مقارنة بالعهد الروماني، لكنه شهد استمرار المقاومة الأمازيغية التي حالت دون بسط سلطة الإمبراطورية على كامل البلاد، وأسهمت في إضعافها قبل الفتح الإسلامي.

المرجع:

- محمد البشير شنيتي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)، دار الحكمة، الجزائر، 2003.

- محمد البشير شنيتي، الاحتلال الروماني للبلاد المغرب (سياسة الرومة 146 ق.م – 40م)، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

- محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم والسياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1992.

- محمد سعيد عمران، حملة الوندال في شمال افريقيا، دار المعارف، القاهرة، 1985.

عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

- محمد مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي ، بيروتن لبنان، 2007، الجزء الأول.

- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2017، ج1(الجزائر القديمة والوسيطة)